نظرات في سورة يوسف (5)

ويعلمك من تأويل الأحاديث

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

كان لافتاً للنظر تحذير يعقوب لأبنه يوسف عليهما السلام، من إخبار إخوانه برؤياه:(لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين)، فلماذا يكيد الإخوة لأخيهم؟ وما الداعي لتذكيره بعداوة الشيطان للإنسان؟ وما المقصود بتعليم يوسف من تأويل الأحاديث؟

الرؤيا تخبر بأن يوسف سيصير نبياً وسيصبح زعيماً ذا مكانة حتى إن إخوته الأحد عشر وأبويه سيكونون تابعين له خاضعين لسلطانه، والوالد يسره أن يكون ابنه في منزلة أعلى من منزلته، بعكس الإخوة الذين يكون بينهم التنافس، ويظهر أن يعقوب عليه السلام قد لاحظ غيرة أبنائه من يوسف قبل الرؤيا، لما يتمتع به يوسف من مزايا تثير حفيظة إخوانه.

وقد علل الكيد المتوقع من الإخوة بأنه ناتج عن عداوة الشيطان للإنسان، وفي هذا ملحظان: أولهما أن الوالد وهو يحذر ابنه من كيد إخوته لا يريد أن يغرس في صدره أي كراهية لهم، والثاني أن الشيطان معنيّ بالحرب والتحريض ضد الأنبياء والدعاة، فهم الذين ينيرون دروب البشر ويقودونهم إلى سعادة الدارين، فلعله يطفئ نور الله تعالى أو يثير الغبار والضجيج حوله، وهو إذ يجند من بني آدم لحرب الدين وأهله فإنما يشقيهم.

وقد أكد يوسف في آخر السورة دور الشيطان الذي نزغ بينه وبين إخوته، ومن قبل أنسى الشيطان الساقي أن يذكر مظلمة يوسف للملك، ما أدى إلى مكوثه في السجن بضع سنين، ولماذا يتدخل الشيطان هنا؟ إنه بالتأكيد معنيّ بأن يظل نور النبوة حبيساً ممنوعاً من الوصول إلى الناس، لكن الله تعالى وهو الغالب على أمره أخرج يوسف في ظروف من التقدير الإلهي، من سجنه إلى سدة الحكم.

وبعد التحذير يؤوّل يعقوب رؤيا ولده بأنها وراثة النبوة، (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم)، ويلفت النظر استخدامه لتعبير (من تأويل الأحاديث)، وليس (تأويل الرؤى)، كما نتوقع، فأما حرف الجر (من) فليفيد التبعيض.

والتأويل يعني مآلات الأمور ونهاياتها وعواقبها، أي أن الله تعالى قد كشف لبصيرة يوسف خفايا الأمور وعواقبها، وهو أمر يشتمل تأويل الرؤى، لكنه أعم منها ولا يقتصر عليها، وقد قال يوسف للفتيين: (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله

من قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي) ، أي بتأويل ذلكما الطعام وحقيقته وما يؤول إليه أمره، وذاك من الغيب في اليقظة لا في المنام.

وكذا قوله: (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون)، فهذا الوحي من تأويل الأحاديث، يطمئن الله تعالى يوسف بما سيصير إليه حاله مع إخوته.

لقد لاحظ الخضر أن عدم صبر موسى كان لعدم معرفته بتأويل أفعاله الغريبة؛ (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً)، ومعنى ذلك أن معرفة النهايات مما يساعد في الصبر على وعثاء الطريق، واتخاذ القرارات الصائبة، وعدم الانزلاق عند المنعطفات، أو التيه في بنيات الطريق ودهاليزها.

لقد كانت رؤيا يوسف من البداية عامل صبر وثبات للنبيين الكريمين، وكذلك وحي الله ليوسف أنه سينبئ إخوته، بإجماعهم أن يجعلوه في غاية الجب، وهم لا يشعرون، وكان رد يوسف على امرأة العزيز عندما راودته عن نفسه: (إنه لا يفلح الظالمون) نظراً إلى المآلات والعواقب، وكذلك حين قال: (رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه)، ومثل ذلك عندما رفض الخروج من السجن عندما أوّل رؤيا الملك، إلا بفتح تحقيق تتجلى فيه براءته ليخرج إلى المجتمع نقي الثوب طاهر الذيل، فيثق به الناس عزيزاً على خزائن الأرض، وداعية رسولاً إلى مصر وما حولها.

ويلاحظ المنهج الذي اتبعه النبي يعقوب في تعاطيه مع رؤيا يوسف، عليهما السلام، فإنه قبل أن يؤولها بأنها النبوة والملك، حذره قبلها، كي يكون الواقع والمستقبل على خير وجه، وهو ما يذكرنا بقوله تعالى:(ذلك خير وأحسن تأويلاً) .

وعلى خطى يعقوب سار يوسف فإنه لم يكتف بتأويل رؤى الفتيين ثم الملك، فقد دعا الفتيين إلى التوحيد، وأعطى خطة إنقاذ عملية لخمس عشرة سنة، إذ كان المتوقع أن يؤول رؤيا الملك بسبع سنوات من الخصب والرخاء تتلوها سبع من القحط والجدب، لكنه بدأ بالحل العملي: (تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون)، كي يكون مآلهم أحسن مآل.